عدد خاص
بمناسبة مرور ستين سنة على تأسيس الكلية

مجلة

عدد مزدوج
السابع والثلاثون – الثامن والثلاثون
2018/2017

الحركة أسلوب للحكم في العصر الوسيط
نموذج الغزوات عند الأمويين في الأندلس

محمد حقي
كلية الآداب، بني ملال

تقديم

سبق وأن نشرنا مقالين حول الحركة في العصرين الموحدي والمريني[1]، اتضح من خلالهما أن الحملات العسكرية تتجاوز الدور العسكري إلى القيام بوظائف عديدة تصب في اتجاه الدعاية للنظام وضبط المجال الجغرافي للدولة. وفي محاولة لتوسيع الدراسة والبحث عن أوجه التشابه بين التجربة الأندلسية؛ التي تعتبر مصدر إلهام لدول المغرب، والتجربة المغربية، سنعمل على دراسة نموذج الحركة الأموية لتبين بعض خصوصياتها ومميزاتها، وبالتالي اكتشاف مدى إمكانية إلهامها لحكام المغرب من مرابطين وموحدين ومرينيين. الأكيد أن المادة التاريخية التي توفرها المصادر ضعيفة وقليلة، بل يمكن القول إن المصدر الوحيد الذي يمكن التعويل عليه هو ما تبقى من "مقتبس ابن حيان" والنقول التي احتفظ بها ابن عذاري في بيانه، دون أن يمنع ذلك من ورود بعض الإشارات في مصادر أخرى سيكشف عنها في المكان المناسب. وسيحاول المقال الوقوف عند المصطلح

(1) مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط، العدد 27، السنة 2007 والعدد 34، سنة 2014، ص.(137-162).

المفضل عند الأندلسيين لنعت الحركة، وجانبها التنظيمي، ومهام الأمراء والخلفاء مع ما سيستنتج من ذلك حول الوظائف الحقيقية للحركة، ثم الختم بنوع من المقارنة بين الحركة الموحدية والأموية.

1 - المصطلح

استعملت المصادر الأندلسية لنعت الحملات العسكرية الأموية؛ سواء التي يقودها الأمراء والخلفاء أو التي ينوب عنهم فيها بعض القادة، مصطلحات متعددة ترد في غالب الأحيان مترادفة أو للدلالة على شيء واحد يقع في أوقات مختلفة من السنة.

إن أكثر الكلمات تداولا هي كلمة غزوة ومشتقاتها كفعل غزا أو المصدر غزو أو غزاة[2]، وترد للتعبير عن كل حملة عسكرية بغض النظر عن وجهتها (مسيحيون-متمردون مسلمون) أو وقتها (صيف- شتاء).

ونجد إلى جانبها كلمة صائفة وجمعها صوائف[3] وهي مشتقة من كلمة صيف وهو الفصل الذي تنظم فيه، وبالرغم من أن استعمالها لا يقتصر على نوع واحد من الخصوم فإنها أكثر تداولا عند الحديث عن مواجهة المسيحيين في الشمال.

وقريبا منها نجد كلمة شاتية وجمعها شواتي[4] وهي كالأولى مأخوذة من اسم الفصل الذي تنظم فيه (الشتاء)، لكنها نادرة ولم تشتهر أكثر إلا في عهد الحاجب المنصور العامري.

وترد كلمة حركة بصيغتي المفرد والجمع[5] وتحمل معنى عاما كما يظهر هذا النص لابن حيان في حديثه عن الحكم المستنصر عام 364هـ/ 974م "فافتتح

(2) ابن حيان، المقتبس، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد، 1979، ج5، ص. 159 و171 و179 و183 و189 و 215 و 245 ...

(3) نفسه، ص.281 وابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983 ج2، ص. 55.

(4) المقري، نفح الطيب، دار صادر، بيروت، ج1، ص.402. قال: "غزا[المنصور] فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف"، وردت عند العذري في "ترصيع الأخبار" بكثرة ويمكن الإشارة إلى الصفحات 74 و75 و76 و78 و79.

(5) ابن حيان المصدر السابق، ج5، ص.250 و ج6، ص.211 وأخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص.118.

حركاته إثر تفوهه بالبدء إلى بيت الله تعالى"[6]. وهذه الكلمة نادرة الورود في المصادر.

وفي الأخير نجد كلمة بعوث أو بعث بصيغة المفرد والتي تدل على إرسال الجنود للغزو[7].

كما يلاحظ فالكلمتان الأكثر تداولا للتعبير عن الأعمال العسكرية لأمويي الأندلس هما غزوة التي تهم كل أوقات السنة وكل الخصوم وصافية التي تهم فصل الصيف والمسيحيين خاصة مع أنها قد ترد في الحديث عن المسلمين من المتمردين، لذلك سنستخدمهما في هذا التحليل وخاصة الأولى.

إذا كانت المواجهات العسكرية عنصرا أساسيا في حياة الدولة الأموية منذ قيامها وحتى سقوطها لكثرة الثوار وتوالي هجومات الجيران، فإن تنظيم الغزوة وفق نمط محدد ونظام دقيق تطلب وقتا طويلا وهمة من الأمراء لينضج ويكتمل. لذلك علينا؛ على الأقل، أن ننتظر عهد الحكم الربضي (180-206هـ/ 796-821م) لتظهر المعالم الأولى لهذا التنظيم. ويجب أن نعترف أن المصادر لا تشير إلى ذلك مباشرة وإنما تأتي ببعض ما ينبئ بذلك ويحمل على استنتاجه مثل قولها: الحكم "أول من جعل الملك بأرض الأندلس أبهة"[8]، ثم يزداد الأمر تطورا وتعقيدا في عهد ولده وخليفته عبد الرحمن الثاني (206-238هـ/ 821-252م) الذي تقول المصادر عنه: "أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسى الخلافة أبهة الجلالة"[9] وكذلك "رتب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة"[10]، ودون أدنى شك؛ فسيكون للغزوة والموكب الأميري نصيب من هذه الأبهة. وبالرغم من التراجع الذي شهدته فيما تبقى من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ وخاصة في عهد الأمير عبد الله الذي قيل عنه إنه "اقتصد في

(6) المقتبس، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج6، ص.211.

(7) المقري، المصدر السابق، ج1، ص.363.

(8) نفسه، ص.341.

(9) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.91.

(10) المقري، المصدر السابق، ج1، ص.347.

مراكبه واختصر حلى مراكبه"[11]، فسرعان ما ستبلغ الأوج في كل شيء مع عبد الرحمن الناصر وكل ما تبقى من القرن العاشر الميلادي. وهذه الصورة الأخيرة هي التي سنعمل؛ وفقا للمادة المتوفرة، على توضيح معالمها.

2 - تنظيم الغزوة أو الصائفة

2 - 1 - التوقيت والخروج

فرضت الصوائف نفسها على حياة الأندلسيين لحد أنها صارت جزءا من الجدول السنوي للحياة. ففي "جدول قرطبة" لعريب بن سعد يرد عند الحديث عن شهر فبراير "فيه تنفذ الكتب بالحشود للصوائف"[12]، وهو ما يعني الإعلان عن نية الغزو في السنة وتحديد الوجهة حتى يستعد الناس ويكونوا على أهبة الاستعداد. وقد اعتاد الأمراء والخلفاء إرسال الوزراء للاستنفار للجهاد[13]، أو ترسل "الكتب إلى عمال الكور والنواحي في الاحتشاد لها والاستعداد"[14]، ويعتمد اختيار الشكل على مدى أهمية الغزوة وخطورتها. وقد تكتب رسائل خاصة؛ تتميز بقوة البلاغة وعمق المضمون، لتحريض الناس على الغزو، كما فعل الناصر قبل غزوة 308هـ/ 920م إلى جليقية حيث أصدر "كتابه المشهور (...) منثورا أهتف به على أهل حضرته قرطبة في مسجدها الجامع في الحض على الجهاد والاستنفار إلى الأعداء، ووالوا بقراءته جمعا متوالية"[15].

بعد الإعلان يأتي وقت الخروج الذي يمتد على الفترة من شهر فبراير حتى شهر يونيو[16]، لكن الوقت الغالب هو شهري مارس وأبريل. ويتم على مرحلتين:

---

(11) ابن حيان، المقتبس، ج3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1990، ص.58.

(12) DOZY. R, Calendrier de cordoue , E.J. Brill, Leiden, 1961, p. 49.

(13) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص.95.

(14) مجهول، مدونة تاريخية من عهد الناصر، مدريد – غرناطة، 1950، ص. 34 وابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص.58.

(15) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 156.

(16) نفسه، ج5، ص. 189 و199 و209 و245 و423. وابن عذاري، الصدر السابق، ج2، ص. 180 و183 و202 و206.

مرحلة أولى يخرج فيها الأمير أو الخليفة سرادقه إلى ضواحي العاصمة قرطبة وينصبه هناك إعلانا عن بداية الغزوة أو الصائفة، ودعوة للمشاركين للتجمع بالعاصمة قصد الانطلاق. وقد اعتاد الأمويون نصب السرادق في الربض الجنوبي عند مصلى الربض جنوب المدينة شمال النهر الكبير ويسمى أيضا فحص السرادق نسبة إلى هذه الخيمة التي تنصب به عند الغزو[17]. لكن إشارتين أخريين عند ابن حيان توضحان أنه كان ينصب أيضا في ربض شقندة جنوب شرقي المدينة[18]. مما قد يدل على أنه ينصب في أماكن مختلفة من ضواحي قرطبة حسب الأوقات واختيار الأمير أو الخليفة. ويقضي السرادق في هذا المكان؛ خاصة في عهد الناصر، مدة تتراوح ما بين ثلاثة وعشرين يوما (قبل غزوة 300هـ/ 912م)[19] وثلاث وأربعين يوما (قبل غزوة بنبلونة عام 312هـ/ 923م)[20]. وخلال هذا الوقت تتوافد الحشود على العاصمة. وتسمى هذه المرحلة بالبروز.

وتبدأ **المرحلة الثانية** التي تعبر عن الخروج الفعلي وتسمى الفصول بعد توافد العدد الكافي من المشاركين، وتتم في شهري أبريل وماي ولماما في يونيو. ويوافق هذا الوقت فترة السفر في حوض البحر المتوسط، حيث تعتدل الحرارة ويتوفر الماء والأقوات والعلف ويهدأ البحر[21]. وبينما يتنقل الموكب الأميري تلتحق به باقي الوفود ولا يصل إلى حدود المنطقة المقصودة حتى يكون عسكره قد اكتمل، وصار مستعدا للقتال والمواجهة[22].

2 - 2 - هيئة الموكب الأميري وتنظيمه

كما ذكر أعلاه فالموكب الأميري؛ ربما، يكون قد بدأ تنظيمه في عهد الحكم الربضي وبلغ الأوج مع الناصر. وإذا كنا لا نجد وصفا متكاملا للموكب - على

(17) نفسه، ص. 449 ونفسه، ص. 204.

(18) نفسه، ص. 117 و287.

(19) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 160.

(20) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 18.

(21) BONO، S., Les corsaires , p. 100.

(22) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 147 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 185.

غرار ما حصل مع الموحدين سابقا- فإن الإشارات التي أوردها ابن حيان عنه؛ ربما، تساعد على الاقتراب من الصورة الكاملة، وخاصة الوصف الذي قدمه بصدد حديثه عن غزوة وخشمة عام 322هـ/ 933م، حيث كتب "برز الناصر لدين الله لهذه الغزاة بروزا فخما، تشوهر بالأندلس، واستشنع بقرطبة لكثرة ما ظهر فيه من العدد والعدة والحلي والزينة" ويضيف "برز فيه دارعا مستلئما، متقلدا سيفه، راكبا لأشقر معروف بالعتق من جياد المقرنات، قد حفته قواده وكتائبه، معبأة أحسن تعبئة، مظاهرة الحديد والقوة. وقد احتفل فيما أبرزه لتفخيم بروزه وعده من صنوف العدة، وتماثيل الأعلام والرايات الفخمة البديعة الغريبة الأجناس المرتفعة القيمة، وفي هذا البروز ظهر في أعلامه علم العقاب المصورة التي اخترعها ولم تكن لسلطان قبله، وكان للناس إليها التفات واستشراف، ولها بقلوبهم لوطة أجرت بينهم حديثا متعاورا"[23]. ويتضمن النص مجموعة من العناصر المهمة.

- فخامة الموكب الذي فاق كل ما شوهد قبله ومر. وقد أثار فضول الناس وإعجابهم ومدحته الشعراء وخاصة ابن عبد ربه[24]. كما فجر انتقادات فقهاء قرطبة.

- وصف هيئة الخليفة الذي لبس درعه وتقلد سيفه وركب فرسا شقراء أصيلة.

- إحاطة الحرس المسلح أحسن تسليح بالخليفة وهم في الأغلب من الصقالبة الذين يحتلون المرتبة الأولى في مجلسه حسب الوصف الذي قدمه المقري[25]، وهم مستعدون لحمايته من كل هجوم كما فعلوا في إحدى المرات عندما دنا منه معتوه فاختطفوه بسيوفهم في لمح البصر[26].

- فخامة الأسلحة التي حملها معه.

---

(23) نفسه، ج5، ص.333 - 334.

(24) نفسه.

(25) النفح، ج2، ص.48.

(26) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 27.

- كثرة الأعلام الفخمة والمصورة وتميز علم العقاب من بينها. وتحظى الأعلام في موكب الأمويين منذ التأسيس بمكانة كبيرة[27]، وقد قربوا عشيرة كلاع من جند الأردن برية؛ وهم من نسل الأنصار الذين كانوا يحملون لواء الرسول، فكانوا "يحملون الألوية بين يدي الخلفاء من بني أمية"[28]. ولا يقتصر وجود الأعلام على تلك الموجودة عند الخلفاء، بل كان لكل فرقة من الجند علمها تحمله في القتال وتركزه في مكان نزولها[29]. وعلينا أن نتصور انطلاقا من هذا الوصف الموكب مغطى بالأعلام من كل حجم ولون وشكل.

وإلى جانب ما أورده هذا النص يتضمن الموكب عناصر أخرى منها:

- أدوات وآليات سلطانية[30] لا نعرف الكثير عنها. ومنها السرادق (المضرب) وهو خيمة كبيرة لنزول الخليفة؛ ويتكون من غرف عديدة ورواق وباب[31]، والمصحف المجزأ إلى اثني عشر جزءا ويظهر من هذه العبارة لابن حيان "وندمه [الناصر] على تغريره به في إدخاله إلى دار الحرب خلافا لسننه"[32] أنه أدخل في تنظيم الموكب في غزوة الخندق عام 327هـ/ 937م، مما يعني حضوره في الموكب أو على الأقل عند التوجه إلى الأراضي المسيحية. ويظهر أن هذا المصحف كان فخما ومزخرفا، رغم أن النصوص لا تفصح عن ذلك. وما جعلنا نرجح ذلك العناية الكبيرة التي حظي بها المصحف المنسوب للخليفة عثمان بن عفان في مسجد قرطبة[33]. وقد اتبع الحاجب المنصور العامري هذا التقليد حيث "خط

---

(27) مجهول، أخبار مجموعة، ص. 79.

(28) المقري، المصدر السابق، ج1، ص. 467-468.

(29) نفسه، ج2، ص.595.

(30) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص.436.

(31) نفسه، ج5، ص. 398.

(32) نفسه، ج5، ص.330.

(33) يقول المقري: "كان بالجامع المذكور [جامع قرطبة] في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الذي خطه بيمينه، وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت، وعليه أغشية الديباج، وهو على كرسي العود الرطب بمسامير الذهب" النفح، ج1، ص. 548. وهو المصحف الذي انتقل إلى الموحدين وصار جزءا من موكبهم.

بيده مصحفا كان يحمله معه في أسفاره يدرس فيه، ويتبرك به"[34]. ومظل الخليفة الذي ينصب في مكان نزوله داخل المحلة ويتحدد به موقعه داخل المعسكر[35].

- المرافقون للأمير أو الخليفة. ومرة أخرى لا نستطيع تحديدهم بدقة، لكننا سنقترب منهم من الوصف الذي قدمه ابن حيان في غزوة سرقسطة عام 325 - 326هـ/ 936م[36]. ويتكونون من الأبناء الذين حضر منهم الحكم والمنذر وعبد الله وعبد العزيز وقد يصل عددهم في بعض الركبات إلى سبعة[37]، وبعدهم أعمامه وأعمام أبيه وهم كبار البيت الأموي ويحتلون في ترتيب رجال الدولة المرتبة الثانية[38]، ودونهم الوزراء الذين حضر منهم ستة من أصل إحدى عشر ويحتلون المرتبة الثالثة ضمن هيكل الدولة[39]، وبعدهم أصحاب الخطط الذين حضر منهم ثمانية ويقعون في المكانة الرابعة ضمن جهاز الدولة[40]، وبعدهم الموالي الأمويون عصبية الدولة ومعتمدها، ووراءهم رجال قريش، وبعدهم القضاة؛ وعلى رأسهم قاضي الجماعة الذي يعتبر حضوره ضروريا حتى إنه في البداية كان يسمى قاضي الجند[41]، ويلحق بهم الفقهاء الذين وصل عددهم إلى سبع وعشرين دون أهل سرقسطة، ويحتل هؤلاء المرتبة الخامسة داخل جهاز الدولة[42]. وكما يلاحظ فمعظم رجال الدولة يرافقون الأمير أو الخليفة. أما في قرطبة فقد اعتاد الحكام وخاصة الناصر استخلاف أحد أبنائه في القصر؛ لترسل المراسلات باسمه، وبعض الوزراء المعروفين بالثقة وشدة الولاء مثل أحمد بن موسى بن حدير ثم صاحب المدينة[43].

---

(34) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 288 والمقري، المصدر السابق، ج1، ص. 409.

(35) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 193.

(36) نفسه، ج5، ص. 408.

(37) نفسه، ص. 17.

(38) المقري، المصدر السابق، ج1، ص. 387.

(39) نفسه.

(40) نفسه.

(41) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 48.

(42) المقري، المصدر السابق، ج1، ص. 389.

(43) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 65 و189 و209 و245 و334 و593، وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 86 و 206.

- الجنود من الكور وأهل الثغر والقبائل حسب موقعها من الدولة.

- المتطوعة من الأفراد.

- المحلة: أهل السوق والأحمال والعمال والفعلة والنساء[44]. وتوحي إشارة وردت بصدد غزوة للأمير المنذر عام 273هـ/ 887م بوجود السجن داخل الموكب[45]، بحيث يحمل الخليفة أو الأمير بعض السجناء في حركته.

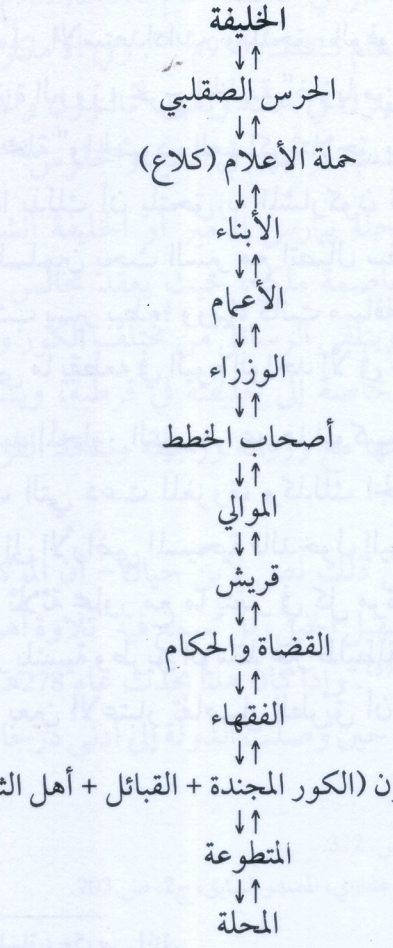

خطاطة الموكب الأميري في الغزوة

(44) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.295 وابن رشد، البيان والتحصيل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2، ص.571.

(45) ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج1، ص.142.

هكذا يمكن أن نلاحظ أن الموكب يشبه مدينة متكاملة ومتنقلة، وهو أيضا حكومة قرطبة الأموية في الأندلس تتنقل بكل مكوناتها، وتتحول كل محلة تنزل بها إلى عاصمة فعلية للدولة، أما قرطبة فلم يعد لها من ذلك إلا الاسم، ولا يربطها بخليفتها إلا الرسائل.

2 - 3 - سير الموكب

عندما تكتمل الاستعدادات وتلتحق الوفود التي تقرر وصولها إلى العاصمة خلال فترة البروز، يخرج الخليفة "غازيا من قصر الخلافة بقرطبة"[46]. فينتقل من محلة إلى محلة "والحشود والعساكر تتلاحق به من أقطار الأندلس وجميع جهاتها"[47] قاصدا بذلك أن يلتحق به المشاركون قبل بلوغ وجهته، وكذلك "لئلا يعنف على المسلمين بحث السير مع اتصال سفرهم"[48]. ويظهر من هذه الإشارات أن الموكب يسير ببطء؛ وربما، كانت مسافة اليوم أو المرحلة (مابين 30 و40 كلم) هي أقصى ما يقطعه في اليوم الواحد إلا في حالات استثنائية.[49]

يصعب تحديد المحاور التي يمر عبرها الموكب لان الطريق المسلوك يحدد بناء على الأحداث التي دعت للغزوة، وكذلك الجهة المقصودة، وحتى جهة الشمال التي تؤدي إلى الأراضي المسيحية فالدخول إليها لا يتم من محور واحد، إذ هناك؛ على الأقل، ثلاثة محاور مع ما يتغير في كل مرة من تفاصيل. فهناك طريق شرق الأندلس عبر بلنسية وطريق الوسط عبر طليطلة وطريق الغرب عبر ماردة. ويمكن إذا أخذنا بعين الاعتبار تفاصيل الطريق أن نقول إن لكل غزوة ممرها الخاص بها.

---

(46) ابن حيان، المصدر الساق، ج5، ص.161.

(47) نفسه وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.176.

(48) نفسه، ج2، 178.

(49) يشير إلى ذلك بوضوح ابن الشباط عندما يحدد المسافة بين قرطبة وطليطلة حين يقول: "للفارس القاصد سبعة أيام، ولمحلات العساكر أربعة عشر مرحلة" وصف الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 14، 1967، ص.12.

في نهاية كل مرحلة ينزل الأمير أو الخليفة بمحلته إما داخل المدن إن وجدت في طريقه وأراد الاستقرار بها لبعض الوقت، وتكون آنذاك ملزمة بتوفير الدور لنزول المشاركين مما يسبب متاعب للسكان ويثقل كاهلهم، ويظهر ذلك في شروط أهل طليطلة على الناصر عام 320هـ/ 931م حين طالبوا بالإعفاء من "معرة الإنزال في الدور"[50]. وقد يتجنب الأمير دخول المدينة ويقيم محلته خارج أسوارها كما فعل الناصر في طليطلة عام 318هـ/ 929م، وسرقسطة عام 323هـ/ 934م، وقلعة أيوب عام 325هـ/ 936م[51]. وفي الأماكن التي لا يجد فيها مدنا في طريقه أو قريبة منه ينزل في محلته ويعهد "بالنزول والاضطراب وإقامة الأبنية"[52]، وينزل الناس حسب مراتبهم في السير والجلوس[53].

خلال التوقف في المحلة يمارس الأمير أو الخليفة أنشطته العادية تماما كما يفعل أثناء الإقامة في عاصمة ملكه، حيث يعقد مجالس المنادمة ويستقبل الشعراء لسماع مديحهم[54]، ويتلقى الرسائل من مختلف الكور والجهات والعدوة المغربية[55]، ويبعث أخرى خاصة إلى خليفته في قرطبة، ويستقبل الرسل[56]، ويتتبع شؤون البلد ويتدارسها مع وزرائه ورجاله ويتخذ القرارات المناسبة كما سنبين فيما بعد.

ويبدو - كما يحيل على ذلك نص لابن حيان - أن الموكب أثناء سيره لا يعرف فقط الهرج والمرج وصهيل الخيل، بل تسمع فيه "تلاوة أهل البصائر للقرآن وتعالي أدعيتهم إلى الرحمن"[57]. وإذا كان هذا يحدث عام 278هـ/ 892م في غزوة بلاي في عهد الأمير عبد الله؛ حين وصلت الدولة إلى أدنى درجات ضعفها وحين

---

(50) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 322.

(51) نفسه، ج5، ص. 359 و398 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.203.

(52) نفسه، ج2، ص. 179.

(53) ابن حيان، المصدر السابق، ج3، ص. 118.

(54) ابن الأبار، الحلة، ج1، ص.199-200 وابن الفرضي، ج1، ص. 135.

(55) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 161 و402 و413.

(56) نفسه، ج5، ص. 398 و403.

(57) نفسه، ج3، ص. 127.

كان الموكب بسيطا، فلا يعقل ألا يكون حاضرا في عهد الخلافة، بداية بالناصر حيث بلغت الدولة الأوج في كل شيء وصار الموكب أكثر فخامة ووضع المصحف في المقدمة وعمرها الفقهاء الأجلاء. ونرجح أن يكون هذا النشاط حاضرا أثناء المسير وعند النزول وخلال القتال.

وقد يستشف من بعض التلميحات أن الموكب لم يكن يعرف انضباطا كبيرا أثناء سيره، مما دفع بعض الأمراء إلى طلب عدم مروره بإقطاعاتهم كما فعل موسى بن موسى القسي صاحب طليطلة عام 247هـ/ 861م، فأسعف في ذلك "ودخلت العساكر على غير بلده"[58].

هكذا يتحرك هذا البحر المتلاطم الأمواج ببطء لكن بإصرار ومثابرة قاصدا وجهته.

2 - 4 - تموين الغزوة

يظهر من النصوص المتوفرة أن المشاركين في الغزوة ملزمون بتوفير نفقاتهم، ولا تتكفل الدولة إلا برجالها. ويتسبب هذا الأمر للناس في حرج كبير حتى إنهم كانوا يطلبون توسط الوزراء والأمراء لإعفائهم من الغزو[59]. واضطر الأمراء والخلفاء إلى التوقف عن الغزو وإعفاء الناس منه في المواسم الجافة[60]. وتتخذ الكلفة أيضا شكل ضريبة (ضريبة الحشود)[61] وتوفير السكن للجند في المدن كما سبقت الإشارة أعلاه.

يحمل المشاركون جزءا من مؤونتهم معهم من بلدانهم، وقبل دخول الأراضي المسيحية يتزودون من الثغور كما حصل عام 323ه حين "امتار العسكر من أعمال بني رزين وبني غزون وسائر جهات أهل الطاعة"[62]. ويوفر سوق

(58) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 97.

(59) ابن حيان، المصدر السابق، ج2، ص. 181-183.

(60) نفسه، ج5، ص.449.

(61) العذري، المصدر السابق، ص. 125 و126.

(62) نفسه، ج5، ص. 359.

المحلة مختلف حاجيات العسكر وبأثمان زهيدة عند وفرة الغنائم[63].

عندما يدخل الموكب أرض العدو؛ بالأندلس أو دار الحرب على حد سواء، يلجأ المشاركون إلى النهب كما تدل على ذلك كثير من النصوص. فهذا ابن عذاري يقول: "وانبسطت العلافة في القرى فانتسفت ما فيها" ويزيد "والجيوش لا تمر بموضع إلا اصطلمته، وتعلفت زروعه"، ويضيف "يحترس فيه بالمنتشرين من أهل العسكر في العلافات وطلب المرافق"[64]، وقال ابن حيان عن الناصر في غزوة بنبلونة "أخرج قواده (...) للتدمير وجلب العلافة"[65].

وكان للغنائم عند توفرها دور أساسي في التموين، إذ يتوسع بها الناس، وعليها يتوقف أحيانا تواصل الغزو، حتى إن الطرفين المتصارعين يحاولان قطع الطريق على بعضهما البعض بحصاد الزرع المبكر، كما حصل في غزوة وخشمة للناصر عام 322ه عندما حصد النصارى زروعهم قبل وصوله، فاضطر إلى الانسحاب وعدل عن التوغل في بلادهم[66].

نستخلص مما سبق أن تموين الغزوة يعتمد على إمكانيات المشاركين والغنائم والأسلاب، وهذه مصادر هشة تتميز بعدم الاستقرار والثبات وفيها نوع من المجازفة، مما يجعلها خطرا على نتائج الغزوة، وقد كانت في أحيان كثيرة وراء التوقف عن الغزو أو التراجع عنه أو الانسحاب بعد الشروع فيه.

2 - 5 - العودة والاستقبال

بعد انتهاء الغزوة بتحقيق أهدافها كليا أو جزئيا أو ظهور عراقيل تمنع من استمرارها يبادر الأمير أو الخليفة إلى إرسال رسائل تخبر بالنصر (كتب الفتح) أو تشرح أسباب الفشل. وعادة ما توجه الرسائل إلى قرطبة لتقرأ بجامعها[67]، لكنها

(63) ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص. 203.

(64) نفسه، ج2، ص.188 و189 و194.

(65) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص.398.

(66) نفسه، ص. 341-342.

(67) نفسه، ج5، ص.242.

قد تعمم على كل الكور بتوجيهها إلى العمال مقرونة بعبارة "فامر بقراءة كتابنا في المسجد الجامع في موضعك على أوليائنا ورعيتنا قبلك"[68]، كما حصل عندما فتح الناصر معاقل بني حفصون ببيشتر عام 316هـ/ 927م.

ونظرا لأهمية هذه الكتب وكثرتها، فقد خلقت وظيفة قارئ رسائل الفتح بقرطبة؛ على الأقل، في القرن 4هـ/ 10م. واحتفظ لنا ابن بشكوال باسم أحد أشهر من تولوها خلال هذا القرن ويدعى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني الطليطلي (310 -394هـ)، وقد تخيره السلطان لصعود المنبر "لقراءة الكتب الواردة عليه بالفتوح بالمسجد الجامع بقرطبة على الناس لفصاحته، وجودة بيانه، وجهارة صوته، وحسن إيراده" ولم يكن يتلقى أجرا[69]. وينبئ الخبر الأخير بكون غيره يحصل عليه.

بعد ذلك يلتحق الأمراء والخلفاء بقرطبة ويحرصون على أن يكون دخولهم فخما ومشهودا يشهده الناس للفرجة كما مر أعلاه، ويثير مشاعر الإعجاب والرهبة عندهم مما يرفع من هيبة الدولة وقوتها. وقد ترك ابن عذاري وصفا مقتضبا لدخول المنصور العامري من غزوة فقال: "دخل قرطبة دخولا لم يعهد، وشهد له فيه يوم لم يعهد"[70].

وبعد أيام من الاستراحة؛ خاصة إذا تحقق النصر، يقوم الأمير أو الخليفة بإقامة حفل لرجال دولته كما حصل عام 320ه/ 931م إذ "صنع الناصر لضروب رجاله ومواليه وصنوف أجناده وحشمه ممن شاهد فتح طليطلة معه، ووافق تطهيره لبعض بنيه الأصاغر"[71].

هكذا تنتهي الغزوة ويتفرق الناس بعد أن يضربوا موعدا لغزوة السنة الموالية.

---

(68) نفسه، ج5، ص. 222-223.

(69) الصلة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955، ج1، ص. 241.

(70) البيان المغرب، ج2، ص.299.

(71) نفسه، ج2، ص208.

3 - وظيفة الغزوة

إذا كانت معظم الصوائف أو الغزوات الأندلسية تأتي ردا على تمرد أو ثورة أو هجوم أو عدم التزام بهدنة موقعة من الجار المسيحي مما يعطيها طابعا سياسيا وعسكريا، فإنها تقوم أيضا بوظائف أخرى موازية، وتحقق أهدافا ظاهرة وخفية يعيها الحكام ويحرصون على إنجازها عند كل تحرك لهم. ويمكن تحديد هذه المهام في تسيير ومتابعة شؤون البلد، واتخاذ القرارات المناسبة في عين المكان، وتحصين الثغور، وترهيب الثوار والمتمردين، وفرض هيبة الدولة على الرعايا بفضل الرموز التي يحملها الموكب.

3 - 1 - تسيير شؤون الدولة

إذا كان الأمير أو الخليفة يغادر عاصمته قرطبة لمدة تصل إلى بضعة أشهر، فإن اتصاله بها وبمختلف الكور والأقاليم يستمر بواسطة جهاز بريد نشيط. ففي العاصمة يترك أحد أبنائه ولو كان طفلا بهدف أن "تنفذ الكتب باسمه"، وهي العبارة التي تتكرر عند الحديث عن الاستخلاف في كل الغزوات[72]. والتأكيد على هذا الأمر يثبت أهمية التواصل بين الأمير في موكبه وعاصمته السياسية، بحيث يتوصل بكل ما يحدث فيها أو تتوصل به من أخبار من مناطق أخرى، ويخبر بتطور الغزوة. ولا تشكل كتب الفتح إلا جزءا قليلا منها. ولذلك نجد الأمراء والخلفاء يتخذون قرارات قد يبلغ درجة الخطورة تخص العاصمة من أماكن نزولهم. فأثناء غزوته عام 301ه/ 913م إلى كورارية والجزيرة وقرمونة "بعث [الناصر] في قاسم بن وليد الكلبي صاحب الشرطة، وكان قد خلف بقرطبة، فسجن وسجن معه محمد بن إبراهيم بن حجاج ومحمد بن وهيب وعبيد الله بن محمد الرقباني وسكن بن جديدة، وعزل ابن مسلمة عن الشرطة العليا، ووليها عباس بن أحمد بن أبي عبدة"[73]. ويتضح من النص أن الإجراءات همت جهاز

(72) نفسه، ج2، ص. 86 و180 و182 و199 - 200 و206، وابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 85 و147 و161 و179 و210 و317 و334.

(73) نفسه، ص. 165.

الأمن في العاصمة؛ خاصة الشرطة، الذي يبدو أنه تواطأ مع أحد الثوار وهو ابن حجاج الإشبيلي.

وفي غزوة مونش إلى طليطلة عام 308هـ وعند نزوله بمدينة الفرج "استوزر (رضه) في هذه المحلة سعيد بن المنذر"[74]. فهذا تعديل وزاري يتم في محلة.

ومن خلال المثالين يمكن أن نستنتج أن الخلفاء والأمراء كانوا يقومون بمهامهم السياسية والإدارية اليومية وكأنهم لم يغادروا العاصمة.

3 - 2 - إخضاع الثوار

عادة ما يحمل الأمراء والخلفاء مشاريع ثانوية تحقق أثناء الانتقال إلى الوجهة الرئيسية للغزوة. ومن هذه المشاريع إخضاع ثوار صغار أو حكام أقاليم ضعيفي الطاعة. ويمكن اعتماد ما حصل في غزوة بنبلونة عام 312ه نموذجا. ففي طريقه، مر الناصر بكورتي تدمير وبلنسية واستنزل الثوار عبد الرحمن بن وضاح ويعقوب بن خالد التوبري وعامر بن أبي جوشن وغيرهم، كما ترك حامية لحصار محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ الذي رفض الغزو بمدينة العسكر. وعند العودة مر بطليطلة على يحي بن موسى بن ذي النون الذي امتنع بدوره عن المشاركة في الغزو، فأخضعه ثم عفا عنه[75].

3 - 3 - التدبير الإداري

يستغل الأمراء حضورهم في بعض المدن والكور لتقويم الأوضاع الإدارية بناء على تقارير مبعوثيهم السابقة حول سير العمال، أو شكاوى السكان التي يتلقونها في عين المكان. ويحتفظ كل من ابن حيان وابن عذاري ببعض النماذج.

أثناء غزوة مونش إلى طليطلة حل بمدينة الفرج (وادي الحجارة) "فنظر لأهلها وعزل بني سالم عنهم، إذ شكوا بهم"، كما استوزر سعيد بن المنذر -

(74) نفسه، ص. 176.

(75) نفسه، ص. 186 و189.

السالف الذكر في محلته – وعينه قائدا عليها، كما ولى على قضائها الفقيه محمد بن مسور، فأرضى السكان ونال شكرهم[76].

وفي الطريق إلى غزوة إلبيرة عام 313هـ مر الناصر بكورة جيان وعزل عبد الله بن سعيد بن هذيل عن جميع حصونها وولى غيره، وهدم أكثر حصون إلبيرة وزار جهاتها لتأمين الرعية[77].

وفي غزوة عام 316هـ فتحت ببشتر وولى عليها الناصر سعيد بن المنذر ونسفت حصونها واستنزل حكامها، وعرفتْ حصون تاكرنا ومغيلة وشذونة نفس المصير إلا قليلا، وولى عليها غير حكامها، ونقل بعض سكانها إلى قرطبة[78].

وفي غزوة عام 317هـ، مر الناصر على جهة ماردة فأصلح الأحوال، وولى عليها محمد بن إسحاق، وترك معه حامية من الحشم[79].

وتكاد هذه الأعمال تحضر وتتكرر في كل الغزوات مما يظهر مدى اتساع برنامجها.

3 - 4 - تحصين الثغور

تحظى الثغور بعناية كبيرة من قبل الأمراء والخلفاء الأمويين، فهي النقط الأضعف في البلد لمتاخمتها لأراضي العدو المسيحي الذي لا يتوقف عن الهجوم للتخريب والنسف والغصب والنهب والأسر واحتلال الحصون. لذلك توجه معظم الغزوات إلى الشمال خاصة الثغرين الأوسط (طليطلة) والأعلى (سرقسطة). وأثناء المرور بها يقوم الخلفاء والأمراء بمجموعة من الأعمال قصد تقويتها وتحصينها.

---

(76) نفسه، ص. 176 وابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص.159.

(77) نفسه، ص. 190.

(78) نفسه، ص.196-197.

(79) نفسه، ص. 200.

ففي غزوة مونش "انتقل [الناصر] إلى حصون المسلمين بالجهة يستقريها بمشاهدته، ويشكها بقوته، وينظر في مصالح أهلها بتدبيره، كلما ألفى قربها للمشركين معقلا هدمه وأحرق بسيطه"(80).

وفي غزوة بنبلونة مر الناصر على حصن بليرة "فعهد بادخار الأطعمة عندهم، وتفريق الأموال فيهم"(81).

وفي غزوة سرقسطة حل الناصر بالثغر "متجولا على دروب المسلمين ما بين حصن أنتيشة إلى مدينة طلبيرة، بعد أن نظم ما بينها بالرجال، وأحكم ما وهى من حصونها وأبراجها، وضعف من معاقلها ومراقبها بمحكم البنيان ووافر الأزواد وأوسع العدد والأسلحة"(82). واضح أن الاهتمام بالثغور يتضمن كل ما يقويها من تحصين بالأسوار ورجال وعدة ومؤن وإبعاد لمراكز العدو القريبة.

من خلال وظائف الغزوة التي استعرضناها يتضح أن لها أدوارا سياسية وعسكرية وإدارية، وهي الهموم الرئيسية للحكام في عصر الدراسة. لكنها تخفي وظيفة أخرى أكثر خطورة وهي تحديد السياسة المجالية للحكام الأمويين، فبواسطتها يحاولون ضبط مجال الدولة ويحددون حدودها بالتنقل عبر كل ربوعها، وكأنهم يضعون علامات حدودية في كل نقطة وصلوا إليها (مثل ترك الرائحة بالنسبة للحيوانات في الطبيعة). فلنأخذ فقط غزوات الناصر الواردة في الجدول كمثال:

الرقم	السنة	الغزوة	الجهة المقصودة	المصدر
1	300/912م	المنتلون	كورة جيان	ابن حيان 5/ 58 و65 وابن عذاري 2/ 160
2	301/913م		كوررية والجزيرة وقرمونة	نفسه/ 85 نفسه/ 164-165
3	306/917م	بلدة	كورة رية	نفسه/ 147-148 ----

(80) نفسه، ص. 179. وابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 167.

(81) نفسه، ص.189.

(82) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص.395.

4	308/919م	مونش	جليقية	--- نفسه/175-176
5	309/920م	طرش	كورة رية	نفسه/171 نفسه/180-181
6	310/921م	مونت روبي	إلبيرة	نفسه/179 نفسه/182-183
7	312/923م	بنبلونة	بنبلونة	نفسه/189 نفسه/185
8	313/924م	أشتبين	إلبيرة	نفسه/199 ---
9	315/926م	ببشتر	كورة رية	نفسه/209-210 ----
10	316/927م	ببشتر	كورة رية	نفسه/215 نفسه/196
11	317/928م	بطليوس	الثغر الأدنى (الغرب)	نفسه/189 ----
12	318/929م	طليطلة	الثغر الأوسط	نفسه/280-281 نفسه/202
13	320/931م	طليطلة	الثغر الأوسط	نفسه/317 نفسه/206
14	322/932م	وخشمة	الثغر الأعلى (سرقسطة والنواحي)	نفسه/333-334 ---
15	323/933م	سرقسطة	الثغر الأعلى (سرقسطة والنواحي)	نفسه/357 ---
16	325/935م	سرقسطة	بنبلونة	نفسه/408 ---
17	327/937م	الخندق	جليقية	نفسه/423 ---
غزوات عبد الرحمن الناصر				

إن أهم ما يلاحظ على غزوات الناصر خلال السبعة والعشرين الأولى من حكمه هو محاولتها تغطية كل الأراضي الأموية في شبه الجزيرة الإيبيرية، لكن بشكل تدريجي وحسب قرب الخطر من مركز الدولة (العاصمة قرطبة) مع زيارة بين الفينة والأخرى للحدود الخارجية. ففي البداية وجدناه يركز على شرق الأندلس (جيان - إلبيرة) وجنوبها الشرقي (رية) وجنوبها (قرمونة -الجزيرة - إشبيلية)، وامتد اهتمامه بها على مدى ستة عشر سنة قضى فيها على أهم وأخطر الثوار ابن حفصون وكل حلفائه في هذه المناطق، وفي مرحلة ثانية توجه نحو الغرب (بطليوس) الذي قضى فيه على ابن مروان الجليقي، ثم في مرحلة أخيرة

توجه نحو الشمال والشمال الشرقي حيث الثغرين الأوسط (طليطلة) والأعلى (سرقسطة) وقمع ثوارها الكبار خاصة بنو ذي النون وآل تجيب. وفي غمرة انشغاله بضبط المجال الداخلي لم ينس الحفاظ على الحدود الخارجية، بحيث وجدناه يخصص الحملة الرابعة والسابعة والرابعة عشر والسادسة عشر والسابعة عشر للعدو المسيحي الذي كان عليه أن يوقف جرأته على حدوده الشمالية ودعمه للثوار داخليا. فكأن الناصر بهذه الحركات يقوم بمسح للمجال من الشرق إلى الغرب في اتجاه دوران عقارب الساعة إلى أن يصل إلى الحدود الشمالية. وبالرغم من انهزامه في الغزوة الأخيرة فإن ذلك لم يؤثر على تحكمه في المجال الأندلسي فيما تبقى من حكمه.

فأنت ترى أن الغزوات والصوائف هي بمثابة تطهير شامل للمجال ومرور لترك الآثار والعلامات وإقصاء لكل منافس ثائر أو حاكم قليل الولاء أو عدو محتل وإقناع للرعايا بمقدرة الحاكم العسكرية والسياسية بالاستجابة لشكاويهم وإصلاح الوضع ولو على حساب بعض رجاله المقربين وبكل الرموز الدينية والعسكرية التي يحملها الموكب الأميري.

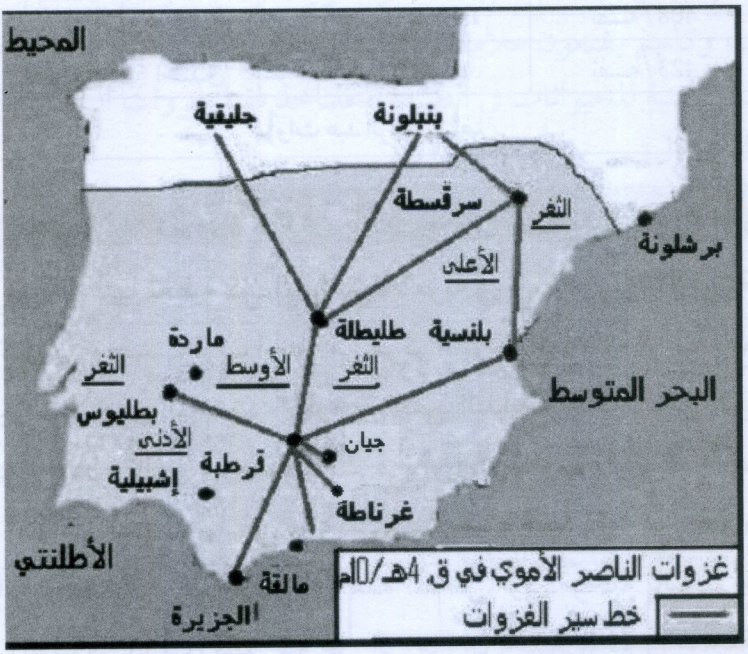

خاتمة

ظهر جليا من الدراسة مدى التشابه الكبير بين الغزوة الأندلسية والحركة الموحدية سواء في التنظيم أو المكونات أو الرموز أو الغايات والأهداف. لكن الحركة الموحدية كانت أكثر تنظيما ودقة كما كانت أكثر تعبيرا من الناحية الرمزية، ولعل تفسير ذلك يكمن في القدرات التنظيمية العالية للموحدين والتحسن التاريخي لتنظيم الحركة الذي هو في صالح الموحدين بحكم تأخرهم الزمني، ويفترض أنهم أخذوا إنجازات الأمويين ووظفوها وحسنوها بما يوافق توجهاتهم المذهبية. فقد غاب عن الأندلسيين قوة التحكم في الجيش أثناء سيره، وافتقدوا احترام ممتلكات السكان الذين يمرون بهم والتي تتعرض للنهب بقصد تموين الجيش، ولم يكن هاجس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حاضرا في تدخلات الأمراء والخلفاء في المناطق التي ينزلون بها، وهذه أمور كانت ظاهرة وبقوة عند الموحدين.

ببيليوغرافيا

* * *

- مجلة كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط، العدد 27، السنة 2007 والعدد 34، سنة 2014.
- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985، ج1.
- ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين.
- مجهول، أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص.118.
- ابن حيان، المقتبس، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد، 1979، ج5
- ابن حيان، المقتبس، ج3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1990.
- ابن رشد، البيان والتحصيل، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2.
- الصلة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955،ج1.
- مجهول، مدونة تاريخية من عهد الناصر، مدريد-غرناطة، 1950.
- ابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983 ج2.
- وصف الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد 14، 1967.
- المقري، نفح الطيب، دار صادر، بيروت، ج1.

-BONO, S., Les corsaires.

-DOZY, R, Calendrier de cordoue , E.J. Brill, Leiden, 1961.

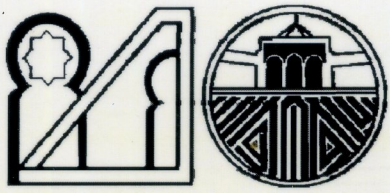

جامعة محمد الخامس بالرباط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

دار أبي رقراق للطباعة والنشر

رقم الايداع بالخزانة العامة 1977/1
الرقم الدولي الموحد : 1160 - 0851